أعمال الدكتور ناصر الدين سعيدوني

الشرق الجزائري

باي ليك قسنطينة أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي

من خلال وثائق الأرشيف

تقديم وتعليق وترجمة

ويليه

رحلة العالم الألماني

ج. أو. هابنسترايت

إلى الجزائر وتونس وطرابلس

تقديم وتعليق وترجمة

طبعة ثانية مراجعة ومنقحة

البصائر
للنشر والتوزيع

تقديم

يشكل الشرق الجزائري إقليما متميزا من حيث شروطه الجغرافية ونشاطه البشري ونوعية الحياة الاجتماعية والثقافية السائدة فيه. فقد ظل لفترات تاريخية مركز الثقل السكاني والاقتصادي للمغرب الأوسط (الجزائر)، يؤثر في باقي أقاليم المغرب العربي ويتكامل مع الإقليمين الأوسط والغربي من "أرض الواسطة" ليشكل الوطن الجزائري وليُكسبه أهمية إستراتيجية وثقلا بشريا واقتصاديا بمنطقة الشمال الافريقي.

لقد شكل الشرق الجزائري في العهد العثماني "بايليك الشرق"، وفي فترة الاحتلال الفرنسي أصبح يُعرف بعمالة قسنطينة، وأصبح اليوم يضم ثماني عشرة ولاية ابتداءً من بجاية غربا إلى الطارف شرقا ومن ساحل البحر إلى أعماق الصحراء، ولعل هذا ما يجعل الشرق الجزائري بمثابة العمق الإستراتيجي للوطن الجزائري عبر التاريخ، فقد شهد أهم التطورات التي عرفها التاريخ الجزائري، ابتداءً من التوسع الفينيقي والهيمنة الرومانية بنوميديا والاجتياح الوندالي والبيزنطي في جهاته الشمالية الشرقية؛ كما أن ملحمة الفتح الإسلامي في القرن السابع قد اختتمت فصولها بمنطقة الأوراس والزاب، حيث تأسست الإدارة الإسلامية وانتشرت عملية الأسلمة والتعريب الذاتي؛ فأصبح بذلك الشرق الجزائري المسرح الذي جرت عليه أهم أحداث الفترة الإسلامية، فكان

مصدر قوة الأغالبة وموطن ثورات الخوارج، ومجال ظهور الدولة الفاطمية العبيدية بزعامة أبي عبد الله الشيعي بإيكجان وتوسعها بسطيف وبلزمة وباغاي، قبل أن تختار المهدية عاصمة لها وتتحول إلى المشرق على عهد المعز لدين الله الفاطمي، وبعد فتح مصر وتأسيس الأزهر. فلم يتوار الشرق الجزائري عن مسرح الأحداث الكبرى لتاريخ بلاد المغرب، بل أصبح مسرح أحداث مهمة حددت منطلقات تاريخ بلاد المغرب من خلال الصراع المستميت بين قبائل كتامة وصنهاجة وبين عشائر زناتة على حيازة الأرض وفرض النفوذ؛ وبواسطة التلاحم والامتزاج البشري الذي نتج عن الهجرة الهلالية وتوطن عشائرها في أغلب جهات الشرق الجزائري.

وكانت تنظيمات ومؤسسات الدول التي حكمت الشرق الجزائري من أغالبة وفاطميين وحماديين وموحدين وحفصيين منطلقات لتأصيل الثوابت العربية الإسلامية في المنطقة، كما كانت حواضره مراكز ثقافة ومنارات علم، خاصة قسنطينة وبجاية وعنابة والمسيلة وطبنة وقلعة بن حماد وبسكرة وميلة وسطيف وزمورة وقلعة بن عباس.

ومع ظهور الدولة الجزائرية الحديثة في مطلع القرن السادس عشر في خضم الصراع المسيحي الإسلامي والمواجهة العسكرية العثمانية الإسبانية، تميز الشرق الجزائري عن الأراضي التونسية وازدادت أهميته، فأصبح بمثابة العامل المؤثر والمعدل لميزان القوى في منطقة المغرب العربي، مما ساعد على تبلور الكيان السياسي للجزائر في العهد العثماني، فاستقرت حدود الجزائر الشرقية مع تونس، وتحولت موانئ بجاية وجيجل وسطورة وعنابة إلى قواعد للجهاد البحري، مما سمح لمدينة

الجزائر مقر الحكم المركزي المرتبط بالدولة العثمانية أن تغدو القوة البحرية المؤثرة في البحر المتوسط، وساعد على جعل دولة الجزائر آنذاك مركز الثقل العسكري ومحور التبادل التجاري بمنطقة المغرب العربي.

لقد كُتب الكثير عن الشرق الجزائري في العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، وتعددت الدراسات حول مختلف جاونب الحياة فيه، واعتمد أغلبها على المصادر المعروفة سواء منها العربية أو الأوربية. كما استفاد البعض من المستحدث من وثائق الأرشيف الجزائري والفرنسي، بينما ظلت الدراسات المعتمدة على الوثائق المحلية والتقارير الخاصة والمذكرات الشخصية محدودة إن لم نقل غير كافية لندرتها وحاجة الباحث إليها.

وهذا ما شجعنا على جمع العديد من الوثائق الخاصة بالشرق الجزائري والتي تعود في مجملها إلى الفترة العثمانية والسنوات الأولى للاحتلال، ويتعلق أغلبها بالجوانب السياسية والإدارية والواقع الاقتصادي والاجتماعي، لينتفع بها الباحث في تاريخ الجزائر الحديث، ويستكمل بها نقاطاً ظلت غير واضحة ومحددة من هذا التاريخ.

إن الوثائق التي يتضمنها الكتاب هي تقاييد محلية ووثائق عثمانية وسجلات وتقارير فرنسية، تم ترتيبها حسب الفترة التي تعود إليها والمادة التاريخية التي تتضمنها، بحيث أصبحت تشكل مجموعة متكاملة من الوثائق، وهي:

ـ الوثيقة الأولى تتعلق بموقف أعيان قسنطينة من جهاد صالح رايس ومكاتبتهم السلطان سليمان القانوني للإشادة به وإقراره في منصبه (963 هـ/ 1555 م)، وهي محفوظة في الأرشيف العثماني (أرشيف طوب قابى سرايي

بإستانبول تحت رقم 10277)

ـ الوثيقة الثانية فهي عرض لحكم صالح باي لبايليك الشرق الجزائري حسبما سجلها المترجم محمد الطاهر النقاد من خلال ما ورد إليه من معلومات وأقوال تتصل بولاية صالح باي وطريقة حكمه وتعامله مع أعيان قسنطينة وسكانها ونهايته، يعود تاريخ نسخها إلى أوائل ذي القعدة 1264 هـ/ أواخر سبتمبر ـ أوائل أكتوبر 1848 م.

ـ الوثيقة الثالثة تُسجل نهاية صالح باي كما أثبتها أحد أحفاده وهو ابن إسماعيل (أحمد بن إسماعيل بن صالح باي)، إن لم يكن مؤلفها محمد الطاهر النقاد كما هو ملاحظ على الوثيقة، تعود كتابتها إلى 18 جمادى الثانية 1272 هـ/ 25 فبراير 1856 م.

ـ الوثيقة الرابعة عبارة عن رسالتين، إحداهما لمحمد باي قسنطينة (المانامانى) تعود إلى عام 1825، والأخرى لأحمد باي آخر بايات قسنطينة تعود إلى عام 1828، وقد أُدرجتا في الكتاب لتكونا نموذجين من مراسلات بايات قسنطينة إلى أعيان بعض العائلات ذات النفوذ بالشرق الجزائري للحفاظ على ولائها وتأكيد مكانتها الخاصة، والرسالتان كما هو معلق عليهما موجهتان إلى عائلة سيدي أحمد بن بوزيد ذات المكانة الخاصة بجهات بلزمة بالأوراس الغربي.

ـ الوثيقة الخامسة ترصد حركة أحمد باي في مواطن قبائل الشرق الجزائري لتفقد أحوالها وضبط شؤونها وربط صلات معها، بعد أن استولى الفرنسيون على مدينة الجزائر (1830) وحدث فراغ في السلطة حاول أحمد باي بهذه الحركة 1250هـ/ 1834م إعادة نفوذ البايليك بجهات الشرق الجزائري، مما يعطي لنا فكرة عن نشاط أحمد باي ومواقف بعض القبائل وزعماء بعض العشائر منه.

ـ الوثيقة السادسة تتعلق بتركة الحاج أحمد باي المؤرخة في 26 ذي الحجة 1267 هـ/ 23 أكتوبر 1851 م، كما حررها الكاتب محمد بن محمد القزادري ووقعها الشاهدان محمد بن محمد وأحمد بن موسى. وهي توضح ثروة أحمد باي بعد سقوط قسنطينة وتُلقي الضوء على أوضاع أسرته في معتقله بالجزائر العاصمة.

ـ الوثيقة السابعة ترجمة لوثيقة فرنسية تصف مدينة قسنطينة من حيث موقعها وتحصينها وكيفية إخضاعها، للضابط الفرنسي سان هيبوليت (مارس 1832).

ـ الوثيقة الثامنة ترجمة لمذكرة فرنسية حول أوضاع إقليم قسنطينة وما تُساهم به قبائل الشرق الجزائري من جباية يعود تاريخها على الأرجح إلى السنة الثالثة بعد احتلال مدينة قسنطينة (حوالي 1839).

ـ الوثيقة التاسعة فهي تسجيل لنسب أولاد عبدي وأولاد زيان وشجرة أسرة بورك، كما سجلها المدعو معلم علي بن محمد حارس وخوجة دوار وادي عبدي بتاريخ 11 يوليو 1933.

ـ الوثيقة العاشرة والأخيرة هي ترجمة حرفية لتقرير روسو حول أوضاع بايليك قسنطينة والمؤرخ في 29 سبتمبر 1838، وهو عرض مُفصل ودقيق يتضمن معلومات تاريخية أولية عن أحوال الشرق الجزائري في أوائل الاحتلال الفرنسي، مما يجعل منه مصدرا تاريخيا وأساسيا للمهتمين بدراسة الشرق الجزائري.

بمثل هذه الوثائق يمكن القيام بقراءة جديدة لأوضاع الشرق الجزائري، تسمح لنا أن نجدد نظرتنا لمعطيات الجزائري، وإعادة تصور الجوانب الاجتماعية منه، التي ظلت مهملة أو معبرة عن نظرة فرنسية خاصة تُركز على الواقع القبلي

وتهتم بالعلاقات الخارجية والمواقف الشخصية، فعسى أن تتكاثف الجهود من أجل دراسة نقدية ومقاربة منهجية وتناول موضوعي، لتحليل المعطيات البشرية والظروف المادية، وفي هذا المسعى نتمنى أن تكون مادة هذا الكتاب استكمالا لما ظل ناقصا من مصادر تاريخية، وحافزا للباحثين على نشر المزيد من التقاييد المحلية والأوراق الخاصة الكفيلة بإغناء الرصيد التاريخي للجزائر.

هذا ولا يفوتني في ختام هذا التقديم أن أُوجه الشكر لمن وجدت لديهم المساعدة على جمع ونشر هذه الوثائق، وخاصة من كانت له يد فضلى في إخراج هذه الوثائق ونشرها، وأخص بالذكر منهم الأستاذ الدكتور الباحث معاوية سعيدوني ورفيقة العمر أم طارق، فلهم منّي بالغ الامتنان وأسمى التحية.

ناصر الدين سعيدوني

مونتريال (كندا) في 10 أغسطس 2012